يكسب المال ، لم يجد بدا من ان يكتب القصص .. كانت مطردة النجاح .. وتقاضى عنها اسعارا حسنة .. سوى انه وجد ان من المستحيل عليه ان يعيش حسب امكانياته . كتب ، في احدى رسائله الى لايكن ، يقول : « تسألني عما اصنع بنقودي .. اني لا احيا حياة مترفة .. ولا اتجول بثياب كثياب المتأنق .. لست مديونا ، بل اني لست محتاجا لان احتفظ بعشيقة (فانا انال الحب مجانا) .. بيد اني ، مع كل ذلك ، لا املك من الثلاثمائة روبل التي تسلمتها منك ، ومن « سوفيرين » ، قبل عيد الفصل ، سوى اربعين روبلا ، علي أن ادفع منها ، غدا ، اربعين روبلا .. الله وحده يعلم اين تذهب نقودي . « وقد انتقل الى شقة جديدة ، حيث حصل ، اخيراً ، على حجرة خاصة به .. ولكنه اضطر ان يرجو لايكن ان يرسل اليه مقدما ، مبلغا من المال ، لكي يدفع الايجار .. وفي عام ١٨٨٦ ، اصيب بنزيف دموي اخر . ادرك ان لا بد له من ان يذهب الى منطقة القرم ، حيث كان المصابون بالسل يذهبون ـ في ذلك الوقت ـ سعيا وراء المناخ الدافيء ، مثلما كانوا يذهبون ، في اوروبا الغربية ، الى الريفييرا الفرنسية ، والبرتغال .. ثم يموتون كما يموت الذباب . ولكنه لم يكن يملك روبلا واحداً للسفر . وفي عام ١٨٨٩ ، توفي اخوه نيكولاس ، الذي كان رساما على شيء من الموهبة ، بداء السل .. كانت وفاته صدمة ، ونذيرا .. وما ان جاء عام ١٨٩٢ ، حتى بلغت صحته من السوء حدا خشي معه ان يمضي شتاء اخر في موسكو.. فاقترض مبلغا من المال ، اشترى به عقارا صغيرا ، قرب قرية تدعى « ماليخوفو » ، على بعد خمسين ميلا من موسكو .. وحمل ـ كالمعتاد ـ عائلته معه ، أباه الصعب ، وأمه ، واخته ، واخاه ميكائيل .. أحضر حمولة عربة من العقاقير الطبية ، فتحلق المرضى ، مثلما فعلوا ابدا ، حوله لاستشارته .. عالجهم ، ما وسعه ذلك .. ولم يتقاض منهم كوبيكا واحدا .

على هذا المنوال ، أمضى خمسة اعوام في ماليخوفو ، كانت ـ على العموم ـ اعواما سعيدة . لقد كتب عددا من اروع قصصه هنالك، وكوفيء عليها بسخاء ، حيث دفع له أربعون كوبيكا على السطر ، اي حوالي الشلن . شغل نفسه بالعلاقات المحلية ، فائمرت مساعيه بانشاء طريق جديدة ، وشيد المدارس للفلاحين على نفقته الخاصة . جاء اخوه الكسندر ، الذي عرف عنه بأنه سكير ، وزوجته ، وابناؤه لكي يقيموا معه . كذلك توافد الاصدقاء ، احيانا ، لزيارته ، فكانت زياراتهم تطول الى بضعة ايام . ومع انه شكا من انهم يتدخلون في عمله ، الا انه لم يستطع ان يحيا بدونهم . وبالرغم من مرضه ، بقي بشوشا ، دمث الاخلاق ، ودودا ، مرحا . تردد ، بين الحين والاخر ، على موسكو ، في نزهات قصيرة . وفي احدى هذه المناسبات ، عام ١٨٩٧ ، أصيب بنزيف دموي شديد ، نقل على اثره الى عيادة طبية ، حيث كان الموت منه قاب قوسين ، او ادنى ، لعدة أيام . لقد رفض دائما أن يصدق انه مصاب بداء السل . سوى أن الاطباء ، بعد ذلك ، اخبروه ان الجزء العلوي من الرئتين مصاب .. وانه ، اذا شاء ان يعيش ، يجب ان يغير اسلوبه ، في الحياة . عاد الى ماليخوفو .. الا انه ادرك أنه لن يتمكن من قضاء شتاء اخر هناك . سافر الى الخارج ، الى بياريتس ، ونيس .. واستقر به المقام ، اخيرا ، في يالطة ، في القرم . نصحه الاطباء بأن يقيم هناك اقامة دائمة .. فشيد لنفسه منزلا ، هناك ، بسلفة مالية من صديقه ، ورئيس تحريره ، سوفيرين .. كان كعادته ، يعاني معاعب مالية مريعة .

تسبب عجزه عن ممارسة مهنة الطب ، بصدمة قاسية له .. لست ادري اي نوع من الاطباء كان .. فبعد تخرجه ، لم يمارس التطبيب اكثر من ثلاثة شهور ، في احد المستشفيات . ويخيل الي ان معاملته لمرضاه كانت سريعة ، وعنيفة نوعا ما .. سوى انه كان انسانا ذا منطق ، وعاطفة .. ولربما كان من المقدر له أن يؤدي الى مرضاه ، من الخدمات، ما يؤديها امرؤ اوسع اطلاعا ، لو انه ترك الطبيعة تأخذ مجراها .. وهكذا ، فقد استفاد من الخبرات المتباينة التي حصل عليها . أن لدي اسبابا تدفعني الى الاعتقاد بأن التدريب الذي يحصل عليه طالب الطب،

ـ التتمة على الصفحة ٥٨ ـ

أنا والصخرة والرحيل

على كتفيّ أحملها ،
كأن وجودها صخره
وأصعد عالمي المجهول ، أنظر ما وراء الغيبِ
من خلف الزجاج ، أراه مطويا .
وأسألها عن الدربِ
فيجهش صمتها الاعمى .
خواء كل ما ألقاه ، وهي تسد لي دربي
حملتك في دمي ثلجا
وفي عيني ليلا مطفأ الجذوه
حملتك ، آه يا قدري ..
أظل ممزق الكتفين ، أرحل عمري المنذور ،
في بحر من الرغوه
فقاعات تنش كأنها بركان ، لا دفء ولا نار
ويرهقني الرحيل ، أظل منشورا على الافق
قراري أخرس الكلمات ، ينشج في عروقي الموت
والشهوه

فصبي الموت ، يا صخره
على كتفيّ ، في زنديّ ، صبي الموت واحترقي
يظل الوهج في عينيّ ، من خلف الزجاج، يشع بالالقِ

***

شموعي أطفأتها الريح ـ
ـ هل من يشعل الشمعه ؟
تبلد في عروقي الدفء، أمطرت الليالي السود جرذانا
عناكب تثقل الطرقات ، يا ويلي ..
كأن الارض كهف موغل العتمه
وأخنق في فمي الكلمات ، تلمع من عيوني دمعةدمعة .
على كتفي أحمل ألف تاريخ وأصعد قمة القمه ؟

***

سدى . لن تعثر الخطوه
سدى . لن تطفأ الجذوه
هنا ، في رحم الغيب ، تهل منابع القوه
فصبي الموت واحترقي
يظل الوهج في عينيّ ، من خلف الزجاج ، يشع
بالالق .

عمان

راضي صدوق